الفصل الثاني
إنسانية المسيح (ناسوته)

أولا: دلائل بشريَّة المسيح

في الجواب على السؤال "من هو فادي مختاري الله؟" يقول كتاب أصول الإيمان: "إن الفادي الوحيد لمختاري الله هو الرب يسوع المسيح الذي وهو منذ الأزل ابن الله صار إنسانا، وهكذا كان ولا يزال إلها وإنسانا معا، ذا طبيعتين متميزتين وأقنوم واحد إلى الأبد". وفي الجواب على السؤال "كيف صار المسيح إنسانا وهو ابن الله؟" يجيب: "إن المسيح ابن الله صار إنسانا باتخاذه لنفسه جسدًا حقيقيا ونفسا ناطقة، إذ حُبل به بقوة الروح القدس في رحم مريم العذراء، ووُلِد منها بدون خطية".

رأينا في الفصل السابق أن المسيح يتمتع بطبيعة إلهية وله كل صفات وألقاب الله، ومع هذا كلّه علينا ألا ننسى، أنه وهو على الأرض قد تمتع بطبيعة بشرية حقيقية وكاملة؛ فقد كان عظما من عظامنا ولحما من لحمنا. عاش أثناء وجوده على الأرض كأي إنسان آخر عرضة لكل الصعوبات والتجارب والآلام. فمن جهة ناسوته أو طبيعته البشرية، هو واحد منا تماما، كما كان متحدا مع الله من جهة لاهوته أو طبيعته الإلهية. فعندما كان طفلا كانت له مشاعر ومزايا الأطفال، وعند نموه "تقدَّم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس".

من فم أمه تعلَّم أولا أمور الله الطاهرة وعند ركبتيها كان يركع مرارا كثيرة ليصلي. لقد نما في بلدة الناصرة التي لم تكن لها مكانة معتبرة ولا شهرة ذائعة.

أما يوسف ومريم فقد احتفظا بتلك العجائب التي رافقت طفولة يسوع، ومن المرجح أن أمه لم تخبر بها إلا الفريق المقرَّب من تلاميذه بعد قيامة المسيح. أما رفقاء وأقرباء معاصرو المسيح فلم يلاحظوا، على الأغلب، أنه خلال نموه كان يتمتع بمزايا فائقة للطبيعة. ومن المرجح أن يوسف – الذي كان خطيب أمه عندما كانت حبلى به – كان قد مات قبل أن يشرع يسوع في خدمته الجهارية. وبما أن يسوع كان الابن البكر فإن مسئولية إعالة أمه وبقية أسرته وقعت على عاتقه، وكنجار كان يعرف معنى الكد اليومي. ومع أن الكتاب المقدس يسمِّي المسيح "آدم الثاني" فإنه لم يأت إلى عالم البشر كإنسان بالغ، بل مر بكل مراحل الاختبارات البشرية، من طفولته حتى رجولته. لقد عاش يسوع المسيح حياة بشرية في كل لحظة وساعة ويوم من وجوده في عالم البشر.

إن حقيقة كون يسوع المسيح قد تمتع بطبيعة بشرية أصيلة، وعاش حياة بشرية اعتيادية، هي بالغة الوضوح والبيان عبر صفحات الكتاب المقدس. لقد تضمن أول مواعيد الوحي الإلهي بمجيء المخلص – كما يذكره سفر التكوين3: 15 – حقيقة ناسوت المسيح للتأكيد على أنه سيكون نسل المرأة الذي يسحق رأس الحية. هناك إذن في مطلع سجلات الوحي الإلهي دلالة قاطعة على أن الله قصد أن يستخدم نائبا بشريا للقيام بمهمة الفداء. أما الوعد المُعطى لإبراهيم فيدل أيضا على أن العهد الأبدي، المقام معه من قِبَل الله، سيتحقق في نسله (تكوين17: 19 و 22: 18). ذلك هو الموعد الذي تحدث عنه الوحي الإلهي على لسان الرسول بولس عندما قال بأنه لم يتم في الشعب اليهودي عامة بل في المسيح بالذات (غلاطية3: 16و 17). أما داود فكان قد وُعِد بأن نسله سيجلس على عرشه من بعده إلى الأبد (2صموئيل7: 12 – 16 وأخبار الأيام الثاني6: 16)، هذا ما ورد في قول المزمور132: 11 "من ثمرة بطنك أجعل على كرسيك". أما النبي إشعياء – الذي تحدث في نبوته عن مجيء الفادي بتفصيل

عجيب – فإنه تنبأ بأن المسيح كان سيولد من عذراء بطريقة معجزية (إشعياء7: 14)، والنبي ميخا ذكر بأن المخلص كان سيولد في بيت لحم (ميخا5: 2).

إن العهد الجديد ينسب إلى يسوع المسيح مشاعر واختبارات بشرية حقيقية، فيما يلي لائحة ببعضها:

1- الولادة
- ولما ولد يسوع في بيت لحم (متى2: 1).
- أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص (لوقا2: 11).

2- النمو
- وكان الصبي ينمو ويتقوى بالروح ممتلئا حكمة (لوقا2: 40).
- وأما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس (لوقا2: 52).

3- التعب
- فإذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر (يوحنا4: 6).

4- النوم
- غطت الأمواج السفينة وكان هو نائما (متى8: 24).
- وكان هو في المؤخر على وسادة نائما، فأيقظوه (مرقس4: 38).

5- الجوع
- فبعدما صام أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا (متى4: 2).
- وفي الصباح إذ كان راجعا إلى المدينة جاع (متى21: 18).

6- العطش
- يسوع.... قال أنا عطشان (يوحنا19: 28).

7- الغيظ
- فلما رأى يسوع ذلك اغتاظ (مرقس10: 14).
- فنظر حوله إليهم بغضب حزينا على غلاظة قلوبهم (مرقس3: 5).

8- الحنو والعطف
- ولما رأى الجموع تحنن عليهم (متى9: 36).
- فتحنن يسوع (على الأبرص) ومد يده ولمسه (مرقس1: 41).

9- المحبة
- فنظر إليه يسوع وأحبه (مرقس10: 21).
- واحد من تلاميذه الذي كان يسوع يحبه (يوحنا13: 23).

10- الفرح
- كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم (يوحنا15: 11).

11- الحزن والاكتئاب
- وابتدأ يحزن ويكتئب (متى26: 37).
- بكى يسوع (يوحنا11: 35).
- الآن نفسي قد اضطربت (يوحنا12: 27).

12- التجربة
- ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرَّب من إبليس (متى4: 1).
- لأنه في ما هو قد تألم مجرَّبا يقدر أن يعين المجرَّبين (عبرانيين2: 18).
- لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مجرَّب في كل شيء مثلنا، بلا خطية (عبرانيين4: 15).
13- الصلاة
- صعد إلى الجبل منفردا ليصلي (متى14: 23).
- وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض (لوقا22: 44).
- الذي في أيام جسده إذ قدَّم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات (عبرانيين5: 7).

14- التألم
- وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا. تأديب سلامنا عليه وبحُبُره شُفِينا (إشعياء53: 5).
- هكذا هو مكتوب..... أن المسيح يتألم (لوقا24: 46).
- مع كونه ابنا تعلم الطاعة مما تألم به (عبرانيين5: 8).

15- الموت
- فصرخ يسوع أيضا بصوت عظيم وأسلم الروح (متى27: 50).
- أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب (1كورنثوس15: 3).

وهكذا فقد أعطي لنا أن نفهم بأنه كانت ليسوع المسيح طبيعة بشرية حقيقية، بما فيها من مزايا البشر الاعتيادية، كما كان أيضا عرضة لنفس الميول البشرية الطبيعية. أما كون طبيعة الرب يسوع المسيح البشرية تامة فهو واضح

من قول الوحي الإلهي: "كان ينبغي أن يشبه إخوته (أي البشر) في كل شيء" (عبرانيين2: 17). إن يسوع المسيح بكل وعي وعن قصد سابق دَعَى نفسه "إنسانا". قائلا: "تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق" (يوحنا8: 40). وقد دعاه البعض من معاصريه "إنسانا". هذا ما قاله بيلاطس عنه: "هوذا الإنسان" (يوحنا19: 5).

- يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قِبَل الله (أعمال الرسل2: 25).
- يوجد وسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح (1تيموثاوس2: 5).

أما سلسلة الأنساب التي تدل على سلالة يسوع المسيح البشرية فلها دلالاتها القاطعة على ناسوته (راجع متى1: 1 – 17 ولوقا3: 23 – 28). تلك القوائم من شأنها ليس الدلالة على ناسوت المسيح فحسب بل أيضا على كونه الوريث الملوكي والشرعي لداود. ثم إن لقب "ابن الإنسان" – بغض النظر عما يحويه من معنى شاسع وعميق – هو في معناه الأساسي يشير إلى طبيعة المسيح البشرية. هذا وإن الكنيسة المسيحية على مدى العصور والأجيال كانت دائما تعتقد بأن مسيحها لم يكن إلها فحسب بل إنسانا أيضا.

إن محدوديات يسوع في مجالات المعرفة تكوِّن موضوعا شيِّقا للدراسة، فكما لاحظنا أنه "كان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس"، وكإنسان لم يكن عليما بكل شيء، فإن الطبيعة البشرية تتصف بالمحدودية، وإذ تمتع بها يسوع فقد ألحقت به المحدودية التي للبشر. من نتائج هذه المحدودية نرى أنه تعجب من إيمان قائد المئة (لوقا7: 9)، كما أنه أبدى عدم معرفته عن وقت انقضاء العالم، ففي إحدى عظاته، قبيل صلبه بأيام، أخبر تلاميذه عن وعي وقصد بأنه لم يكن يعرف وقت انقضاء العالم: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا

يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلا أبي وحده" (متى24: 36). راجع أيضا (مرقس13: 32).

كان يسوع يستعمل قوة معجزية فوق الطبيعة عندما كان يعالج حالات طالبي الشفاء، فعندما لمست ثوبه امرأة بها نزيف دم مزمن، سأل وهو بين الجموع عن الذي لمسه، لأنه شعر على الفور بأن قوة خرجت منه (لوقا8: 45، راجع أيضا مرقس5: 25 – 34). كذلك عندما أخبره مبعوث أسرة لعازر بأن هذا الأخير مريض، عرف يسوع على الفور أن لعازر قد مات. وكان يعرف كذلك بأن القصد من المرض "ليس للموت بل لأجل مجد الله ليتمجد ابن الله به" (يوحنا11: 4). ورغم معرفة يسوع على التو أن لعازر مات سأل: أين وضعوه، وبكى مع الأختين الثكلتين لكنه ما برح أن أظهر قوته الفائقة للطبيعة بإقامة لعازر من الأموات بعد أن كان ميتا لمدة أربعة أيام (راجع يوحنا11: 1 – 44). وعند عودته من بيت عنيا جاع ورأى من بعيد شجرة تين عليها ورق وعندما اقترب إليها لم يجد فيها ثمرًا فأيبسها بمجرد أمر منه (راجع مرقس11: 12 – 14 و11 : 20).

كتب عن هذا الموضوع أحد كبار علماء اللاهوت يقول: "يسوع نفسه أخبرنا، استنادا إلى البشير مرقس13: 32، بأنه كان يجهل وقت يوم الدينونة، كما وأنه أظهر لنا مرارا وتكرارا رغبته في الحصول على معلومات من بني البشر. لقد كان بالفعل محدودا في طبيعته البشرية، ولكن بدون أي نقص في صفاته. وكان أيضا عرضة للتجارب، كما كان يشعر دائما بحاجته للاعتماد على الله. وهو رجل صلاة مُلِمٌّ بالفرق بين ما يتعارض مع مشيئة الله وشريعته، وما ينسجم ويتفق معها. لم يكن يتمتع بعقل إنسان فقط، بل بقلب إنسان أيضا، وأكثر من ذلك إنسان بدون خطية. إنه من الضروري لنا أن ندرك بأنه قد نما تماما كما ينمو البشر، وهذا لا ينطبق على أيام حداثته فحسب بل أيضا على كل مرحلة من مراحل حياته البشرية على الأرض؛ فقد تم نموه في المعرفة والحكمة والاحترام

والإحسان والقوة الأخلاقية والطهارة والقداسة. لقد كان من الطبيعي أن ينمو يسوع المسيح نموا عاديا تماما كما ينمو البشر في كافة جوانب الطبيعة البشرية".

كان من الضروري للمسيح أن يختبر كل ما هو للإنسان ولكن مع كل هذا التشديد الضروري على الدلائل المؤكدة لصحة وحقيقة وأصالة ناسوت المسيح، فإنه من الواجب التشديد على الأدلة المؤكدة لأصالة وكمال طبيعته الإلهية؛ ففي نفس الوقت الذي يبدو فيه المسيح غير عالم بقضية معينة (راجع مرقس13: 32)، فإنه يظهر كمن هو عالم بكل شيء (يوحنا16: 30و 21: 17). وفي نفس الوقت الذي نرى فيه أنه رغب في الحصول على معلومات من مصادر خارجية وسأل عن أمور لا يعرفها ويتعجب من أمور أدهشته، فإنه أظهر أيضا أنه كان مُلِمًّا بكل ما يحدث، أو ما قد حدث دون أن يخبره أحد. لقد علم بتفاصيل أمور نثنائيل السرية (يوحنا1: 47)، كما أنه كان على علم بخفايا حياة المرأة السامرية (يوحنا4: 29)، ثم أنه كان يعرف حتى أفكار أعدائه بالتمام (متى9: 4). نعم، لقد كان على علم بكل ما في الإنسان (يوحنا2: 25). وهذا الواقع المزدوج لم يكن بالأمر المشوِّش أو المزعج، بل إنه كان يمثل أعظم انسجام وأعمق تضامن. صحيح أن المبعوث أخبره بمرض لعازر، ولكنه لم يكن في حاجة لمن يخبره بحقيقة كون لعازر قد مات. وعلى نفس المنوال نرى كيف أنه في الوقت الذي عبَّر فيه عن ناسوته ومشاعره في بكائه على لعازر وحزنه عليه فإنه عبَّر عن ألوهيته بإقامة لعازر من الموت بمجرد أمر تفوه به.

إيجازا لما سبق فإننا في كل مكان نرى هذه الحقيقة المزدوجة العجيبة في حياة يسوع المسيح، أي أنه له المجد كان يتمتع بطبيعة إلهية وطبيعة بشرية في آن واحد. والذين يصلون إلى معرفة يسوع المسيح من متضمنات العهد الجديد، يجدون أنه لم يكن إنسانا فحسب، بل أنه كان أعظم. وكان يشعر مع من يقترب

إليه من البشر. لقد تقبل بصدر رحب إحضار الأمهات لأطفالهن إليه، كما وأنه فتح قلبه للمرأة السامرية مصغيا لها بصدق واهتمام عند لقائه بها. إنه الإنسان الذي شعر بعمق مع مريم ومرثا وشاركهما البكاء على أخيهما لعازر. لقد صادق صيادي الجليل الفقراء والذين كانت مظاهرهم الخارجية تدعو للنفور وثقافتهم المحدودة تبعدهم عن الناس.

أما نحن الذين نعيش حوالي ألفي سنة بعد قدومه إلى عالم البشر، فإننا نجد أنفسنا مرتبطين به بأقوى وأوثق الروابط الشخصية من المحبة والصداقة؛ فلنا تماما، كما كان للمسيحيين الأولين يقول: "أنتم أحبائي" ومع أنه خالقنا وربنا ونحن نتكل عليه ونطيعه، لكننا ندعوه صديقا لنا. فالحقيقة هي أننا لا نكون قد دخلنا بالفعل إلى حياة الشركة معه، ما لم نتعرف عليه، ليس فقط كربِّنا وخالقنا، بل أيضا كصديقنا الحميم. لقد قال لتلاميذه: "لا أعود أسميكم عبيدا لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكني قد سميتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي (يوحنا15: 15). وعبر العصور والأجيال لا زال صوته يدوِّي قائلا: "تعالوا إليَّ يا جميع المُتعَبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (متى11: 28).

كل مسيحي حقيقي يثق بما قد قام به يسوع من أجله يجب أن يشعر – كما اختبر التلميذ يوحنا – بأنه "التلميذ الذي كان يسوع يحبه". ويا له من خطأ فادح أن يلجأ البعض لشفاعة البشر ووساطتهم – أحياء كانوا أم أمواتا – كواسطة للوصول إلى المخلص. إننا بتصرف كهذا نكون قد أبعدنا المسيح عن المؤمنين الذين أحبهم ومات عنهم مكفِّرا عن خطاياهم، وقام في اليوم الثالث لتبريرهم.

ثانيا: التجسُّد

"كيف صار المسيح إنسانا وهو ابن الله؟" يجيب الكتاب المختصر لأصول الإيمان على هذا السؤال بالقول: "إن المسيح ابن الله صار إنسانا باتخاذه لنفسه جسدا حقيقيا ونفسا عاقلة، إذ حُبل به بقوة الروح القدس في رحم مريم العذراء ووُلِد منها ولكن بدون خطية".

خُلِق الإنسان، خلافا لكل الحيوانات، على صورة الله وأعطِيَ طبيعة روحية وعقلية ونفسا حية. يقول الرسول بولس بأن الله "ليس بعيدا عن كل واحد منا، لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد" (أعمال الرسل17: 27و 28). ومع أن العنصرين الإلهي والبشري متميزان أحدهما عن الآخر، غير أنهما ليسا أجنبيين أحدهما عن الآخر وليسا أيضا متضادين أو متعارضين؛ فالإنسان هو شرارة من نار عظيمة أو إناء فارغ بحاجة لأن يمتلئ من النبع غير المحدود، لذلك فلا معنى لوجوده سوى في صلته بالله. وبما أن الإنسان مخلوق على صورة الله، أعطِيَ سلطة على المخلوقات الموجودة في الأرض وطير السماء وسمك البحر (تكوين1: 28). إنه في الواقع يتمتع بمركز إلهي مصغَّر ومحدود. ويقول الوحي الإلهي عن البشر: "أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم" (مزمور82: 6)، وهذا ما اقتبسه المسيح عندما وجَّه كلامه لليهود قائلا: "أليس مكتوبا في ناموسكم، أنا قلت إنكم آلهة؟" (يوحنا10: 34). إذن الترابط ما بين العنصرين الإلهي والبشري هو في الواقع من متضمنات ونتائج خلق الله للإنسان. وبما أن الإنسان خُلق على صورة الله بالذات فإن كلمة الله الأزلي أمكنه وهو كامل الألوهية، أن يُصبح ابن الإنسان، ذلك لأن الإنسان هو بالطبيعة ابن الله. لم يكن ممكنا للمسيح، وهو كلي الألوهية، أن يصبح له طبيعة أجنبية عن طبيعته، ولا أن يصبح على صورة مغايرة لصورته هو.

لم تكن عملية التجسد غاية في حد ذاتها، بل كانت وسيلة للغاية الأسمى، لأن الإنسان بسقوطه في خطية العصيان، وعدم الثقة في قول الله، قد فصل نفسه عن

الله وأفقد نفسه كل القدرة على تدبير خلاصه بنفسه؛ لهذا السبب أخذ الله على عاتقه عملية خلاص الإنسان؛ ومن أجل ذلك صارت عملية التجسد. فالله الذي تجسد في جسم بشري أخذ مكان الإنسان تجاه متطلبات الشريعة والعدالة الإلهيتين. إذن فإن الغاية القصوى لتجسُّد الرب هي أن يموت. "فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضا كذلك فيهما؛ لكي يبيد بالموت ... ويعتق أولئك الذين خوفا من الموت كانوا جميعا كل حياتهم تحت العبودية... من ثم كان ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء لكي يكون رحيما ورئيس كهنة أمينا في ما لله، حتى يكفِّر خطايا الشعب" (عبرانيين2: 14 – 17).

إن النص الذي أورده الوحي الإلهي في رسالة الرسول بولس إلى فيلبي2: 5 – 7 هو الأكثر وضوحا في عقيدة التجسد. يشير هذا النص إلى المسيح بالقول: "إذ كان في صورة الله.....، لكنه أخلى نفسه آخذا صورة عبد صائرا في شبه الناس". وقد وردت في رسائل الرسول بولس- الموحى بها من الروح القدس – إشارات أخَر لموضوع التجسد أمثال ذلك هو ما ورد في كورنثوس الثانية 8: 9 حيث يقول: "فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح.... من أجلكم افتقر وهو غني لكي تستغنوا أنتم بفقره". وفي غلاطية4: 4 يقول: "لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودا من امرأة، مولودا تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني". وفي كولوسي1: 19 يقول الوحي الإلهي عن المسيح: ".....فيه سُرَّ أن يحل كل الملء". وفي2: 9 من نفس الرسالة يقول: "فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا". المسيح إذن، في ولادته من امرأة أخذ على نفسه طبيعة بشرية، ومع أنه بقي على سموه الإلهي إلا أنه صار إنسانا حقا، فإن حلول "كل ملء اللاهوت" في جسد المسيح إنما يعني أن كل ألوهية الله – كل ما يجعل الله الإله الحق – حلَّت في المسيح. لبس لباسا جسديا.. كل من يتطلع إلى يسوع المسيح يرى بدون شك جسدا وإنسانا، ولكن بينما يبدو ذلك واضحا للعيان فإنه من الضروري أن نتذكر بأننا في المسيح نرى الله بالذات بكل كمال لاهوته في

لباس إنساني. يسوع المسيح هو إذن "الله ظهر في الجسد" (تيموثاوس الأولى3: 16).

غير أن غاية الله من التجسد لم تكن إتمام الفداء لبني البشر فحسب، بل كانت الغاية أيضا الكشف عن ذاته للبشر بصورة أكثر كمالا من مجرد سجلات الوحي الإلهي عبر الأنبياء. وهذا يعني أن الحق والسمو يصبحان المبادئ الرئيسية التي تسيِّر الحياة الداخلية لعدد متزايد من البشر عبر الأجيال. في فترة العهد القديم كلَّم الله البشر عبر الأنبياء كاشفا لهم شيئا عن طبيعته وعن حالة الإنسان الخاطئة التعيسة، وأيضا عن مخططه الإلهي للخلاص؛ لكن فترة العهد الجديد، التي نعيش فيها، تتميز بذلك المجد الكامن في الحقيقة، وهي أنه في المسيح جاء الله شخصيا، وفي شخص المسيح وعمله أعطى الله للبشر وحيًا عن نفسه وعن مخطط الخلاص. فالإله الأكبر العظيم الذي خلق هذا العالم, جاء فعلا إلى العالم وعاش بين الناس. هذا هو سر التجسد، أن البشر بأعينهم المجردة رأوا من هو في الحقيقة الله بالذات.

إن المسيح هو نهاية وكمال الوحي الإلهي للبشر، "الله لم يره أحد قط" (يوحنا1: 18) لكن في المسيح، الله الذي هو روح غير محدود، كشف عن نفسه للبشر في كونه قد صار على هيئة البشر المحدودة، حتى أنه في استطاعة البشر المحدودين أن يدركوه في نطاق قدرتهم المحدودة. ومن المهم أن نلاحظ بأن المسيح، عندما دخل في تلك العلاقة الحيوية الشخصية مع الطبيعة البشرية، أضفى عليها بركة لا تُحصى، وذلك نتيجة لتداخل اللاهوت فيها عبر عملية التجسد. وبهذا فإن الطبيعة البشرية أصبحت ذات مكانة أسمى من مكانة الملائكة نفسها، لأن الله لم يختر أن يقترب بعلاقة شخصية حميمة كهذه مع أي من خلائقه الأخرى. "فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضا كذلك فيهما.. لأنه حقا ليس يمسك الملائكة بل يمسك نسل إبراهيم" (عبرانيين2: 14، 16)، كما أن

الطبيعة البشرية التي اتخذها المسيح لنفسه في التجسد ستبقى له إلى الأبد. لقد أحضرها معه حين قام من الموت وعاد بها إلى الآب. ففي السماء ظهر ليوحنا كشبه ابن إنسان في صورة بشرية (رؤيا1: 13)، كذلك فإن استفانوس وهو يستشهد "رأى مجد الله ويسوع قائما عن يمين الله" في مركز الإكرام والعظمة والقوة (أعمال الرسل7: 56). وهكذا فإنه بقيامة المسيح وصعوده وجلوسه على عرش العظمة، رفع معه الطبيعة البشرية وأوصلها فوق كل مكانة في الكون. إن الإقامة القصيرة التي قضاها المسيح على الأرض لم تكن مجرد حضور إلهي أو ظهور وقتي لله في صورة بشرية، بل كانت تجسدا حقيقيا ودائما. بعض شخصيات العهد القديم كانوا قد شاهدوا ظهورات إلهية، مثال أولئك، إبراهيم (تكوين18: 1 – 33) ويعقوب (تكوين32: 24 – 30) وموسى (خروج24: 9 – 11، 34: 5و 6) ويشوع (يشوع5: 13 – 15) ووالدَيْ شمشون (قضاة13: 2 - 22) وإشعياء (إشعياء6: 1 -5) وأصدقاء دانيآل الثلاثة شدرخ وميشخ وعبد نغو (دانيآل3: 24 – 25). لكن تجسد المسيح كان يختلف عن تلك الظهورات اختلافا جوهريا؛ ففي التجسد وُلد ابن الله كطفل في بيت لحم، ولمدة ثلاث وثلاثين سنة استمر ذلك الوصل ما بين الله والطبيعة البشرية بصورة بدت فيها الطبيعة البشرية واضحة جلية.

عقيدة التجسد المسيحية لا يمكن المغالاة في تقدير أهميتها، فإن صحة واستقامة المسيحية كالدين الفدائي والخلاصي الموحى به من الله؛ تَثْبُتان أو تسقطان مع هذه العقيدة بالذات. ولعل أوضح بيان لهذا الواقع هو ما ورد في رسالة يوحنا الأولى والتي أوحِيَ بها في وقتٍ تزايد فيه عدد المرتدين وناكري الإيمان، وقد كان القصد منها ترسيخ إيمان المؤمنين ضد الضلالات التي انتشرت بكثرة وشراسة. أما إحدى تلك الضلالات الرئيسية فكانت ضلالة نكران تجسد المسيح، لذلك نجد أن يوحنا لم يُصِرّ على الاعتراف بحقيقة كون يسوع قد أتى إلى العالم بالجسد فحسب، بل إنه يجعل من هذه الحقيقة أساسا من أساسات

الإنجيل. يقول البشير يوحنا في رسالته الأولى: "كل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم أنه يأتي والآن هو في العالم" (1يو 4 : 3)، ثم يضيف قائلا: "كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله... من له الابن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة... ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية" (رسالة يوحنا الأولى5: 1، 12، 20).

ثالثا: ميلاده العذراوي

في الفصول الأولى من الإنجيل حسب متى ولوقا ترد نصوص مفصلة عن ولادة يسوع المسيح من العذراء مريم. الاعتبار الأساسي الذي يركِّز عليه الخبر هو كيف أن الإله الرحيم المحب يتدخل لأجل خلاص شعبه تتميما لمواعيده وتنبؤات وَحْيه الطاهر. أما التدخل الإلهي الخلاصي فقد حمل طابعا مُعجزيا. من هنا كان من المهم أن ندرك أن المعجزات التي ارتبطت بمجيء المسيح من عالم البشر (بما فيها ميلاده العذراوي) لم يكن حدوثها لمجرد سد حاجات فردية مختلفة ومتشعبة، ولم تكن مجرد أحداث متفرقة، بل كانت بكليتها مرتبطة ومتراصة معا ضمن نطاق تتميم المخطط الإلهي للفداء، والذي لا شك فيه أن المسيح هو مركزه.

إن المعجزات المدوَّنة في الوحي الإلهي – سواء كانت في العهد القديم أو الجديد من الكتاب المقدس (خاصة تلك التي تختص بتجسد المسيح وقيامته من الموت) – لم تكن وليدة ظروف تاريخية أو اجتماعية عارضة؛ لأننا لو وضعنا نصب أعيننا واقع كون المسيح شخصية غير اعتيادية، فإنه يسهل علينا إدراك ضرورة ارتباط تاريخية دخوله وخروجه من عالم البشر بمظاهر تاريخية معجزية

غير اعتيادية. لذلك ونحن نتعرض لموضوع ولادته المعجزية من عذراء لا بد أن نضع ضمن أساس دراستنا، الظروف الاجتماعية والتاريخية التي رافقت عملية مجيئه إلى عالم البشر. يمكننا ملاحظة هذا في لوقا1: 28 – 38، إذ يسجل لنا الوحي الإلهي أن يوسف خطيب مريم كان رجلا يعمل بالنجارة، ذا وضع اجتماعي متواضع، مع أنه من عرق يهودي صافي؛ لكن الله اختار أن يكون حبل مريم بالمخلص حبلا معجزيًّا بواسطة الروح القدس، مع أن بشارة الملاك أكدت لمريم بأن المسيا المولود منها سيكون له عرش داود بالذات. سمع يوسف عن الأمر وقرر فسخ خطبته من مريم بهدوء، دون أن يسيء الأمر إلى سمعتها. لكن ملاك الرب منعه حتى من تنفيذ الأمر بهذا اللطف، وعرَّفه ببراءة مريم وبضرورة عدم تخلّيه عنها، وبأن المولود منها سيكون من الجهة القانونية ابنا له، مع أنه لم يكن له به أي علاقة جسدية. تقبَّل يوسف مشيئة الله بإيمان وحلَّت الطمأنينة في قلبه وزال الانزعاج. وهكذا تأمَّن مولد المسيَّا من عذراء، في الوقت الذي كانت له من خلال يوسف تغطية أبوية قانونية مثل باقي أقرانه.

إن سجل ولادة المسيح هذا لا شك منسجم تماما مع مكانته العظيمة ورسالته السامية بين البشر. لقد كان مولده ضمن العائلة الروحية والجسدية لشعب الله وخاصة في المحيط الذي تمسك بتعاليم التوراة والأنبياء. جاء متواضعا ومن نسل داود الذي كان مثال العظمة الدينية والروحية والملكية بين اليهود؛ لكن أسلوب مجيئه المعجزي هذا يعكس أمرا هاما للغاية؛ فمن جهة كان يجب أن يكون إلهًا حقا – وهذا تم عبر أسلوب حبل أمه به – ومن جهة أخرى كان من المفروض أن يتمتع بطبيعة بشرية حقيقية، وهذا تم بولادته من امرأة كما هو الحال مع باقي البشر. لعل تلك الحقيقة المزدوجة هي جوهر ولب عملية التجسد نفسها؛ فلو أن المسيح جاء بدون أحد هذين العنصرين (الإلهي والإنساني) لما انطبقت عليه أوصاف المسيَّا المنتظر، ولما تمت النبوءات التي أشارت إلى مجيئه من عذراء (راجع نبوة إشعياء7: 14) كما أشارت إلى وجوده الأزلي السابق وإلى كونه

الرب الآتي للبشر بالذات (راجع نبوة إشعياء9: 6 – 7 ونبوة ميخا5: 2 – 4). ثم أنه لو لم يتوفر فيه هذان العنصران (الإلهي والبشري)، لما كان صالحا لأن يكون فادي البشر والوسيط بينهم وبين المحضر الإلهي. أما وأن ملامح كل من ألوهيته وبشريته قد تجلَّت في ولادته العذراوية واستمرت في الوضوح عبر حياته الأرضية وحتى قيامته من الأموات بعد صلبه، فإنه لم يعد هناك مجال للشك في كونه هو ابن العذراء، الإله المتجسد الذي توقعت قدومه أجيال المؤمنين والمؤمنات.

لكن أهم جوانب ولادة المسيح العذراوية هو الجانب التاريخي لها، فلم تكن مجرد ادعاء تمسكت به مريم أو أقاربها للتأكد من تطبيق نبوءات الأنبياء على الوليد المنتظر أو لستر فضيحة صدمت العائلة. صحيح أن مريم كانت أول من عرف بالأمر، لكن معرفتها جاءت قبل أن يحدث أي شيء، ثم أن الله كشف عن تلك الحقيقة ليوسف خطيبها وللرعاة في البرية وحكماء المشرق الذين ساروا وراء النجم غير المعتاد الذي دلَّهم إلى مكان ولادة الصبي. أما أليصابات أم يوحنا المعمدان فقد أوحى لها الله بتلك الحقيقة وهي في شهرها السادس من الحمل ولم يتبقَّ على ولادة ابنها سوى ثلاثة أشهر، إذ أنها بمجرد لقاء مريم شعرت بتحرك غير طبيعي للجنين الذي تحمله، وقد تفهمت على التو بإرشاد إلهي أن مريم هي العذراء الموعودة التي كانت ستحمل الملك المنتظر الذي يأتي وليدها ليهيئ الطريق لمجيئه (راجع الإنجيل حسب لوقا1: 23 – 55).

لا يخفى على بال أحد أن ولادة يوحنا المعمدان نفسه وحبل أمه به لم تكن خالية من عنصر تدخل المشيئة الإلهية المعجزي، لكن مع أن حبل أليصابات بابنها يوحنا جاء في عمر متأخر، بتدخل إلهي لإصلاح عقمها هي وزوجها، فقد كان مولد يوحنا طبيعيا واعتياديا وليس بطريقة معجزية غير معتادة كما هو الحال مع المسيح (راجع لوقا1: 5 – 25). أما عنصر عدم التشابه الجوهري بين ولادة يوحنا المعمدان وولادة المسيح فقد ارتكز في ولادة المسيح العذراوية؛

فبتدخل الإرادة والقوة البشرية في عملية مجيء يوحنا المعمدان إلى العالم بقي مجيئه إلى عالم الأحياء نتيجة عملية حبل طبيعية اشترك فيها والداه الاثنان. أما ولادة يسوع فجاءت نتيجة لحبل معجزي من عمل الله المباشر، لم يكن لرجل أي دور فيه على الإطلاق. فيما عدا ذلك الأمر فإن المسيح، كيوحنا وغيره من البشر، حملته أمه في بطنها تسعة أشهر، وجاءت عملية خروجه من بطن أمه على نحو طبيعي معتاد. من هنا جاء تركيز المشيئة الإلهية في توضيح فرادة مجيء المسيح إلى عالم البشر على ولادته العذراوية بالذات، وذلك تشديدا ليس على انفراده بالدور الخلاصي الذي جاء لتنفيذه فحسب، بل أيضا لتمتعه بطبيعتيه الإلهية والبشرية. صحيح أنه كان في استطاعة الله أن يأتي إلى عالم البشر بأسلوب مختلف فيما لو كانت تلك مشيئته، لكن اختياره لوسيلة الولادة من عذراء حقق ما أراده هو بأسلوب واضح ومُلِفت لانتباه البشر.

إن ميلاد المسيح من العذراء مريم دل على أمرين هامين بالنسبة لهويَّته. أولا: إن طبيعته الإلهية لم يكن لها أم، وثانيا: إن طبيعته البشرية لم يكن لها أب (ابن الإنسان لم يكن ابن أي إنسان). ثم إن هذين الأمرين فصلا المسيح عن الطبيعة الساقطة الموروثة عن آدم التي اكتسبها ويكتسبها باقي البشر؛ فلولا ميلاده العذراوي لما كان أهلا لتنفيذ عملية الخلاص كإنسان؛ لأنه بدون ذلك يكون قد وُلد في الخطية كباقي البشر، ولولا ميلاده العذراوي ما كان قد حمل تلك الهويَّة والطبيعة الإلهية غير المحدودة التي – دون سواها – تخوِّل له دور حمْل خطايا ذلك العدد الضخم من البشر الهالكين.

رابعا: تواضع المسيح

يخبرنا الرسول بولس في رسالته إلى فيلبي2: 8 بأن المسيح "وضع نفسه" عند إنجازه لعملية الفداء، وقد عبَّر كتاب أصول الإيمان عن هذا

الموضوع كما يلي: "كان اتضاع المسيح, بولادته وذلك في حالة متدنِّية، وبجعله تحت الشريعة, وبتحمله مشقات هذه الحياة، وغضب الله والموت اللعين على الصليب، وبدفنه ومكوثه تحت سلطان الموت إلى حين".

بحسب هذا البيان فإن المرحلة الأولى في اتضاع المسيح كانت في ولادته؛ فكونه رئيس المجد – الذي يشترك في بهاء وجلال الله الآب – قد تنازل لكي يتخذ (في وحدة شخصية ومستمرة مع ذاته) طبيعة هي أدنى للغاية من طبيعته الأصلية. حتى لو أنه دخل العالم كملك متسربل بالأرجوان ومتوَّج بالذهب لكان ذلك تنازلا كبيرا، أما أن يُولد كطفل عاجز يتكل بالكلية على أمه وأن يكون فقيرا لتلك الدرجة المؤثرة بحيث لم يكن له موضع ليسند رأسه، وأن تكون حياته معرضة للخطر، بسبب اضطهاد هيرودس لدرجة أن والديه فرَّا هاربين إلى مصر، فإن هذه كلها تكشف بجلاء عن تنازله الكلي واتضاعه المطلق لصالحنا. هذا ما يصعب على عقولنا إدراكه، فمع أنه كان مصدر الشريعة نفسها، فقد اعتاد في نموه على محدودية كيانه البشري، وأخضع نفسه لمتطلبات الختان. وهكذا أخذ مكانه تحت الشريعة كما لو كان يهوديا عاديا. وهاك ما ذكره أحد علماء اللاهوت البارزين عن المسيح: "سكن في بيت حقير ضمن قرية وضيعة ومحتقرة تدعى الناصرة، وسط جيران خشنين وأفظاظ وفي محيط ضيق ومنكمش ومن أكثر الأماكن تجاهلا من قبل ذوي الشأن. ومع أنه رب الجميع فإنه كان خاضعا ليوسف ومريم كطفل بشري عادي. كما وأنه كدَّ في حانوت النجار وأخضع نفسه لمشقات المساكين والمتضعين. لقد دفعته خدمته الجهارية للاتصال بكل صنف ولون من البشر، ابتداءً بالضعفاء والخطاة, ونزولا بالسفلاء والمنحطين، فلم يتردد عن التوقف للتعامل معهم جميعا. ومع أنه كان إلها قدوسا طاهرا فقد عاشر هؤلاء يوما بعد يوم وكأنه واحد منهم، وكان يأكل مع العشارين المحتقرين ومع الفريسيين المتكبرين. لقد تعرض للجوع والعطش وشعر بهما مرات كثيرة. لم يكن له موضع ليسند رأسه حتى أنه لم يكن لديه ما في جعبة أدنى الأدنياء في

مجتمعه. لقد قاسى عداوة مُرَّة واضطهادا كاسرا، على أيدي زعماء اليهود. ومع أن اتضاع وتألم المسيح استمرا بشكل أو بآخر عبر كافة مراحل حياته الأرضية, فقد ازدادت وطأة آلامه لدى اقتراب خدمته الخلاصية من نهايتها. لقد تعرض في المرحلة الأخيرة من حياته على الأرض لاختبار أعمق وأقسى، ألا وهو اختبار الذل والبغض من قِبَل أعدائه. لقد وصلت المذلة إلى ذروتها عندما جُرَّ محتقرا ومذلولا من قِبَل أعدائه وسط صيحات اللامبالاة القاسية وعواطف الشعب الهائجة ضده والمنادية بجهل وغباء منقطع النظير "اصلبه.. اصلبه..". إنه في ذلك الوقت بالذات كان في بداية حمله للدينونة الهائلة التي كان قد سبق فرآها آتية لا محالة على كافة الأمة اليهودية، تلك الأمة التي كان ينتمي إليها ويحبها. جميع تلك الأمور كانت عبئا عليه. إن تألمه وموته على الصليب إنما كانا أشد أنواع الموت وأكثرها رهبة وعذابا، عبر تاريخ الجنس البشري".

لم تكن الآلام الجسدية كل ما كان عليه تحمله على الصليب؛ فبما أنه كان يقوم بعمله الخلاصي عن شعبه، أي ببذل نفسه فدية، فإنه عومل كما لو كان هو بالذات الذي أخطأ واستحق العذاب، حتى أن حضور الآب الذي كان يلازمه في كل لحظة من لحظات حياته حُجِب عنه تماما في تلك اللحظات كما يحجب الظلام نور الشمس. أما نفسه الحساسة فقد تُركت لتتألم وحدها، في خصام عنيف مع قوى الشر الغاشمة التي سعت باستماتة – يصعب وصفها في هذا الظرف الأخير – آملة في إسقاطه وإحباط عمله الفدائي. أما صراخ عذابه "إلهي إلهي لماذا تركتني؟" فما هو إلا دليل على شدة تألمه. أما نحن فلا يمكننا أن نتفهم ولو جزئيا مشقَّة ما تحمله وهو معلق على خشبة الصليب، ولكننا نعلم أنه لم يعمل أية خطية ولم يكن للموت أي حق فيه. لقد أخذ مكاننا باختياره وتحمل العقاب الذي استحققناه نحن، وهكذا قدم لنا كفارة عن خطيتنا. لذلك لا يمكننا مجرد طرح مسئولية صلبه على يهود ورومان ذلك العصر، بل ما يمكننا فعله هو أننا بالتوبة والاتضاع نعترف بمظهر الجريمة الأوسع؛ فخطيتنا نحن وخطيتهم هم هي التي

جلبت عليه تلك الآلام المبرحة. لقد تألم بصورة خاصة لأجل المعذبين أفرادا وجماعات، بغض النظر عن العصر الذي يعيشون فيه، لأنه حمل عنهم ذلك الحمل.

ثم إن اتضاع المسيح تم بدفنه في مقبرة أعِدت لبشر، لم يكن موتهم متوقعا فحسب بل كان أمرا محتوما، ففي دفنه اشترك نهائيا مع كل البشر الذين يموتون ويُدفنون، الذين تنحل أجسادهم وتزول. ولكن جسده لم ينحل بل بالأحرى قام من الأموات أمجد قيامة بعد ثلاثة أيام.

خامسا: مجد المسيح

على أي أساس يقوم ارتفاع الرب يسوع المسيح؟ جوابا على هذا السؤال يقول كتاب أصول الإيمان: "إن مجد المسيح يقوم على أساس قيامته من الأموات في اليوم الثالث وصعوده إلى السماء وجلوسه عن يمين الله الآب، وعودته لدينونة العالم في اليوم الأخير".

إن ارتفاع المسيح لا يتعلق بطبيعته الإلهية، التي هي الآن، والتي كانت دائما، مباركة وممجدة؛ بل إن التمجيد يتعلق بطبيعته البشرية لأن طبيعته الإلهية لا تتغير، ولذلك فهي غير قابلة للزيادة أو النقصان. إن اتضاعه كان مؤقتا وقد ابتدأ بولادته وتم بدفنه ولا يمكن تكرار هذا على الإطلاق. أما ارتفاع المسيح فإنه مستمر وقد ابتدأ بقيامته وصعوده وما زال قائما حتى الآن، وهو جالس عن يمين الله الآب ويدير أمور ملكوته بصورة مستمرة. إن هذا سيُكشف عنه بصورة كاملة عند نهاية العالم حين يأتي بمجد أبيه ومع الملائكة القديسين ليدين الشعوب ويعيِّن لكل فرد مصيره الأبدي.

إن قيامة السيد المسيح لم تكن مجرد خطوة أولية لتمجيده؛ بل إنها أيضا واحدة من أعظم حقائق الإنجيل. بهذا العمل انتصر الرب يسوع المسيح على الموت وخرج حيا من القبر. هذا هو البرهان على أن عمله الفدائي كان ناجحا تماما، وانتصاره كان انتصارا تاما على الموت. وقد أظهرت أيضا بأن عمله هذا قد أنجز كل مطاليب الشريعة الإلهية التي سنها الله عند الخليقة الأصلية، بأن النفس التي تخطئ يجب أن تموت؛ لذلك فإن الموت لم يعد له أي حكم عليه ولا على أي من الذين مات عنهم وافتداهم. لقد برهنت قيامة المسيح أيضا على أنه كان كما قال تماما، أي ابن الله (مساو لله الآب)، الذي ظهر في الجسد. وبما أنه تألم ومات – ليس بسبب أي خطية له بل كالقائد الذي ينوب عن شعبه – فإن قيامته هي الضمان على أنه في الوقت المعيَّن سيُقيم أيضا شعبه المنتسب إليه انتسابا حيًّا في قيامة مجيدة. ذلك يعني أن الإنجيل هو حق، وأن الشيطان قد دُحِر نهائيا. انتصرت الحياة على الموت والحق على الباطل والخير على الشر والسعادة على البؤس. كل تلك الانتصارات هي أبدية دائمة كما أبرز الرسول بولس أهميتها الحقيقية القصوى حينما قال: "وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل أيضا إيمانكم.. وإن لم يكن المسيح قد قام فباطل إيمانكم. أنتم بعد في خطاياكم. إذًا الذين رقدوا في المسيح أيضا هلكوا. إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاء في المسيح، فإننا أشقى جميع الناس. ولكن الآن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين. فإنه إذ الموت بإنسان, بإنسان أيضا قيامة الأموات. لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيُحيا الجميع، ولكن كل واحد في رتبته. المسيح باكورة ثم (يتبعه) الذين للمسيح (والذين سيقيمهم) في مجيئه الثاني" (1كورنثوس15: 14 -23).

النتيجة الأولى والأكثر تأثيرا للقيامة ظهرت في التغيير التام الذي حدث في عقول وقلوب التلاميذ؛ فمع أنهم بعد الصلب كانوا خائري العزم تماما وشكّوا في المسيح كالمسيا الحقيقي المنتظر، فإنهم على ضوء القيامة أصبحوا مقتنعين

اقتناعا كاملا بأن مسيحهم الذي قام من الأموات هو ابن الله، المسيا الموعود به، مخلِّص العالم. منذ ذلك الحين لم يزحزحهم شيء عن اعتقادهم هذا، فخرجوا وصاروا يبشِّرون في كل مكان وأظهروا بأنهم مستعدون لأن يتألموا وحتى أن يموتوا - إذا دعت الضرورة - لأجل الإنجيل. إننا نعلم بأن البعض منهم قد استشهدوا في معرض خدمتهم له، والتاريخ يخبرنا بأن أكثر تلاميذ المسيح انتهت حياتهم الأرضية بالاستشهاد لأجل مسيحهم.

الخطوة الثانية في ارتفاع الرب يسوع المسيح كانت صعوده. يذكر البشير مرقس بشكل موجز أنه بعد أن تكلم مع التلاميذ "ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله" (مرقس16: 19)، ويمين الله هو بالطبع مركز الإكرام والتأثير والقوة والجلال. يقول البشير لوقا بأن المسيح "أخرجهم (أي التلاميذ) خارجا إلى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم. وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأصعد إلى السماء" (24: 50و 51). أما السرد الوافي لحادثة الارتفاع فقد قام به لوقا في سفر الأعمال، فبعد تدوين كلمات يسوع الأخيرة للتلاميذ يواصل الوحي الإلهي بالقول: "ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون، وأخذته سحابة عن أعينهم. وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق، إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس أبيض وقالا: أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقا إلى السماء" (أعمال الرسل1: 9- 11).

وعن صعود المسيح قال أحد اللاهوتيين المشهورين:

1- إن صعود المسيح كان بكل أقنومه، كالإله المتجسد، ابن الله المتسربل بطبيعتنا البشرية (ذو جسد حقيقي ونفس ناطقة)، هو الذي صعد.

2- إن صعود المسيح كان منظورا؛ فالتلاميذ شاهدوا كل هذه العملية. قد رأوا شخص المسيح يرتفع تدريجيا عن الأرض و"يصعد" حتى حجبته سحابة عن مرآهم.
3- لقد كان الصعود انتقالا لشخصه من مكان إلى آخر، من الأرض إلى السماء، فالسماء هي إذن "مكان". أما مكان وجود السماء بالنسبة للأرض فلم يكشف عنه الوحي الإلهي، ولكن حسب عقيدة الكتاب المقدس، السماء هي مكان محدد أو معين من الوجود حيث يظهر حضور الله بطريقة خاصة وهو محاط بملائكته الأبرار.. وبأرواح قديسيه الأبرار الذين ماتوا على رجاء القيامة.

السماء هي موطن السيد المسيح وهي عرشه وهيكله؛ فالصعود أو الارتفاع شكَّلا الوجه المقابل لنزوله إلى الأرض. لقد سبق أن بحثنا في موضوع وجوده السابق ورأينا بأنه قد "أتى" أو "أرسل" في مهمة خاصة للفداء. وإذ أتم ذلك العمل بنجاح تام فإنه عاد إلى موطنه السماوي لاسترداد مكانته الأصلية العليا. هذا وإن عالمنا الحاضر، بما فيه من معالم الشر، ليس بالمكان الملائم لوجود الفادي في حالة مجده الكامل، ولا يمكن أن يصلح لاستضافة دائمة للمسيح العلي إلا بعد أن يكون قد تعرض هذا العالم الحاضر لعملية تطهير وإعادة خلق، تجعل منه سماء جديدة وأرضا جديدة. وبما أن السيد المسيح قد جهَّز كفارة فعلية, وأوفى كل المتطلبات القانونية المترتبة على خطايا شعبه؛ فقد كان من الضروري أن يضع تلك الكفارة موضع التنفيذ في حياة من خصتهم, وذلك بواسطة عمل الروح القدس. فالروح القدس هو الذي يجدد نفوس البشر ويعدُّهم إعدادا كاملا للوطن السماوي. ولكي يُنجز ذلك فإنه يقوم بإنارة ألبابهم الروحية وحثِّهم وتوجيههم إلى الإيمان والتوبة، ومن ثم يدفع بهم في مسيرة مطردة نحو التقديس. هذا وإنه بدون قوة الروح القدس المجدِّدَة والخلاَّقة يبقى البشر متجشمين تحت عبء خطاياهم دونما انتفاع فعليّ من عمل المسيح الخلاصي. ولكن مباشرة الروح القدس لعمله الجليل هذا تفترض أن تسبقها عودة المسيح

المخلص لمجده الأصلي مع الآب. لقد أفهم المسيح تلاميذه بالقول: "الحق... إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم" (يوحنا16: 7). فالبركة العظيمة الخاصة التي تنبأ عنها الأنبياء وقالوا بأنها من مميزات عصر المسيا، هي بركة الروح القدس، أما منح تلك البركة الخاصة بالكنيسة فكان مرتبطا بصعود الفادي. لقد تمجَّد لكي يمنح التوبة ومغفرة الخطايا، ولكي يجمع شعبه من كل الأمم وفي كل العصور ليصبح عمله الخلاصي فخرا في حياة المؤمنين. وكان عرشه السماوي أنسب مكان للكشف عن كمال عمله الكفاري. من المفيد بهذه المناسبة أن نشير أيضا إلى أن معاملات الله مع البشر في هذا العالم تشتمل على ثلاثة أشكال متميزة، لكل أقنوم من أقانيم الثالوث الأقدس صلة خاصة بأحدها. في تدبير الله الأبدي كان يوجد ما يمكننا أن ندعوه بتقسيم العمل بين أقانيم اللاهوت، وترتيب معين للحوادث: كان عمل الآب في الخلق والعناية الضابطة لكل شيء، وقد امتد عبر حقبة العهد القديم وحتى ولادة يسوع المسيح في بيت لحم. أما عمل الابن فقد اختص بعملية الفداء وقد ابتدأ بولادته في بيت لحم واستمر حتى يوم الخمسين؛ ففي أثناء ذلك الوقت قام بتجهيز كفارة عملية وأنجز كل المطاليب الشرعية عن شعبه، بحيث يمكن أن يُنقلوا, من حالتهم في الخطية والشقاء, إلى حالة الحياة الجديدة في سلام مع الله. إن عمل الروح القدس يختص بتطبيق عملية الخلاص الكفارية – التي أكملها الابن – وترسيخها في حياة المؤمنين، وقد بدأ عمل الروح القدس هذا بشكله الكامل والواضح في يوم الخمسين، عندما تأسست كنيسة العهد الجديد، ويمتد هذا العمل الخاص للروح القدس حتى النهاية (حتى اكتمال عملية الخلاص وتجميع الكنيسة).

الخطوة الثالثة في ارتفاع المسيح هي جلوسه عن يمين الله. من هناك يوجِّه أمور ملكوته المتقدم ويحافظ على نظامه الكامل. ولكي يكون حكم وساطته ناجحا بالكلية, كان من الضروري أن يُعطى حكما مطلقا حيث قال: "دُفِع إليَّ كل

سلطان في السماء وعلى الأرض" (متى28: 18). هذا ما قاله عندما عهد إلى تلاميذه بتبشير العالم أجمع. ولقد سجَّل الوحي الإلهي على لسان بولس قوله: "لأنه يجب أن يملك حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه". وأردف قائلا أيضا: "آخر عدو يُبطل هو الموت" (كورنثوس الأولى15: 25و 26). وقد أمر المسيح تلاميذه بأن يذهبوا وأن "يتلمِذوا جميع الأمم" (متى28: 19). ويؤكد على انتماء تلك الشعوب للإله الحقيقي بواسطة المعمودية "عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس". والرسالة التي يجب أن يتضمنها ذلك التبشير العام هي بالطبع اللُّب الحيوي للإنجيل "وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به" (متى28: 20). هذا وسنبحث في الموضوع مليًّا عندما ندرس موضوع "المسيح كملك".

الخطوة الرابعة والأخيرة في ارتفاع المسيح ستكون مجيئه الثاني بقوة ومجد عظيم؛ ليكون الديان النهائي للعالم أجمع، فسيظهر حينئذ في جسد قيامته محاطا بالملائكة وسيجلس على كرسي مجده (متى25: 31). "وستراه كل عين" (سفر الرؤيا1: 7). هذا هو يسوع ذاته الذي رُفِض من شعبه وحُوكِم كمجرم أمام محكمة بيلاطس، ودِينَ بظُلم وحُسِبَ مع الأثمة، حينما كان على الأرض. وسينال الناس من شفتي السيد خبر ثوابهم أو عقابهم النهائي، وحينئذ إذ يكون عهد وساطته قد تم وتُوِّج بالنجاح الكامل فإنه يسلم الملكوت للآب ويستعيد علاقته الأصلية بأقنومَي الثالوث الآخرَيْن، ويشترك تماما بالمجد الذي كان له مع الآب قبل إنشاء العالم. وسيملك مع الآب والروح القدس إلى الأبد على المفديين، "ومتى أخضع له الكل فحينئذ الابن نفسه سيخضع أيضا للذي أخضع له الكل كي يكون الله الكل في الكل" (1كورنثوس15: 28).

هذا إذن ما نعنيه بارتفاع المسيح، ويجب أن نُعِيد إلى ذاكراتنا أنه لم تكن طبيعة يسوع الإلهية بل طبيعته البشرية هي التي ارتفعت، أي أن الإنسان يسوع

المسيح هو الذي أخذ جسد القيامة وصعد إلى السماء والذي يشترك في الوساطة، والذي ستراه كل الشعوب حينما يأتي ثانية إلى العالم في اليوم الأخير.

سادسا: عصمة المسيح

إن التعرض لموضوع عصمة المسيح وعدم ارتكابه لأي خطأ أو شر، وتوافر كافة مزايا الكمال والطهارة والقداسة في حياته، هو أمر في غاية الحيوية بالنسبة للعقيدة المسيحية عن المسيح بمجملها. إن عصمة المسيح هي العمود الفقري لصموده النهائي وثبات مؤهلاته لأن يكون وسيطا حقيقيا بين الله والناس، فلو أنه أخفق ولو في زلة واحدة خلال حياته على الأرض لتهدم كل البناء الذي جاء لإقامته.

عصمة المسيح، قبل كل شيء، هي المحك الأساسي لكون المسيح ذا طبيعة إلهية، ثم إنها الدليل على أنه كان الإنسان الصالح الوحيد الذي بتَمتُّعِه بالطهارة والكمال تمكَّن من حمل عقاب الآخرين. إضافة إلى ذلك فإن قيامة المسيح من الموت ما كانت ممكنة إطلاقا لو لم يتمتع المسيح بتلك العصمة المطلقة عن الخطأ. لعل تلك الحقائق هي من أكثر معطيات الإنجيل وضوحًا وجلاء.

من المناسب بالطبع أن نبدأ في عرض موضوعنا هذا بالنظر إلى أوصاف المسيا المنتظر التي طرحتها تنبوءات أنبياء وأسفار العهد القديم؛ فقد كان من المفروض فيه أن يكون تقي الله الذي لم ير فسادا (مزمور16:10), وأن يكون عمانوئيل وليد العذراء الذي يَعرف "أن يرفض الشر ويختار الخير" (نبوءة إشعياء7: 15و 16)، وهو "عبد الله الذي يعقل ويتعالى ويرتقي ويتسامى جدا... بحبره شفينا... الرب وضع عليه إثم جميعنا... على أنه لم يعمل ظلما ولم يكن في فمه غش... البار..." (نبوءة إشعياء52: 13؛ 53: 5، 6، 9، 11). من هنا كان

يجب على الملاك الذي بشَّر مريم أن يعرِّفها بأن المولود منها هو "القدوس... ابن الله" (لوقا1: 35).

لكن الشهادة لعصمة المسيح في متضمنات الوحي الإلهي لم تكن مجرد تصريحات، بل كانت مدعمة بحقائق ملموسة وظاهرة للعيان، وموضوعية لدرجة أذهلت من عاصروا المسيح، ولفتت انتباهم كينونة اختلافه عن باقي البشر. هذا مهم للغاية؛ لأن الكثيرين أخذوا بمعجزات المسيح لدرجة أنهم اعتقدوا بأن ذلك هو السبب الجوهري الوحيد الذي سحر الجموع التي تبعته وآمنت به، وإن لفترة وجيزة على الأقل. صحيح أن الأغلبية الساحقة، بين الذين تبعوا المسيح في مطلع خدمته، اجتذبتهم القوة الخارقة التي سيطر فيها على عوامل الطبيعة؛ لكن الواقع أن ذلك لم يكن العامل الوحيد لاجتذاب أي من أتباعه ورسله، الذين التصقوا به وكرَّسوا حياتهم لخدمته. لقد كانت لأخلاقه نقاوة وطهارة، وكان لأسلوب ودوافع حياته أعظم الأثر وأعمق الوقع على هؤلاء، بل لعل ذلك هو العامل الرئيسي وراء حياة الطهارة والقداسة التي مارسها ملايين المسيحيين عبر الأجيال.

الشهادة لعصمة المسيح لم تأت من ملائكة الله والمؤمنين فحسب، بل أيضا من بعض أعدائه. مثال ذلك ما ورد على لسان الخائن يهوذا، الذي أسلمه للموت مقابل حفنة حقيرة من النقود؛ فهو إذ شعر بالندم على عمله المرذول هذا؛ ألقى بتلك النقود على الأرض أمام أولئك الذين أعطوه إياها قائلا: "قد أخطأت إذ سلَّمت دما بريئا" (متى27: 4). ثم إن زوجة الحاكم بيلاطس التي أزعج منامها خبر القبض على يسوع وتسليمه لسلطان زوجها للمحاكمة فقالت لزوجها: "إياك وذلك البار" (متى27: 19). وبيلاطس نفسه إذ أدرك سمو وطهارة المسيح، وبعد أن منعه من إطلاق سراح المسيح جُبْنه وخوفه من اليهود على مركزه قال لهم: "إني بريء من دم هذا البار" (متى27: 24). أما ذلك المذنب الذي كان أحد الاثنين اللذين صُلبا معه، إذ أدرك براءة وطهارة المسيح صرَّح قائلا: "أما نحن

فبعدل ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئا ليس في محله" (لوقا23: 41). كما أن القائد الروماني للمجموعة العسكرية التي أشرفت على صَلبه إذ صعقته حقيقة السمو الأخلاقي والأدبي للمسيح المصلوب قال: "حقا كان هذا ابن الله" (متى27: 54).

لكن شهادة المؤمنين والرسل لعصمة المسيح لا تقل أهمية عن تصريحات هؤلاء، خاصة وهم مجموعة الناس الذين تقربوا إليه وتعرفوا على ما قد نسميه بحياته الخاصة. وهم بالطبع أول من تقع عليه مسئولية دحض ادعاءات المعارضين؛ ولذلك كان لزاما عليهم أن يكونوا الأكثر حرصا على عدم التورط في تصريحات أو أقوال يستعملها أعداؤهم لمحاولة إثبات ضلالهم. ومع ذلك نجد أن التردد لم يطرأ ببالهم وهم يفحصون عن عصمة سيدهم عن الخطأ. الرسول بطرس قال عنه: "لم يفعل خطية ولا وُجِد في فمه مكر" (رسالة بطرس الأولى2: 22), والرسول يوحنا قال عنه: "ليس فيه خطية" (رسالة يوحنا الأولى3: 5), أما كاتب الرسالة إلى العبرانيين فقال: "مجَّرب في كل شيء مثلنا (ولكن) بلا خطية" (4: 15), وقال: "بروح أزلي قدَّم نفسه لله بلا عيب" (9: 14)، كما قال الرسول بولس – مضطهد أتباع المسيح الذي اهتدى بعد ذلك – عن المسيح: "لم يعرف خطية" (2كورنثوس5: 21).

بيد أن الوحي الإلهي يسجل لنا كيف أن المسيح كان قد وضع نصب عينيه، منذ البداية، الطاعة الكاملة والمطلقة لشريعة الله، وكيف أنه لم يتزحزح عن إصراره هذا حتى قاده ذلك إلى الموت (راجع رسالة فيلبي2: 8). وتصريحات المسيح نفسها تدل دلالة قاطعة على وعيه الدائم بضرورة القيام دوما بما يرضي الله (يوحنا8: 29). كان يسوع في صراع مستمر ضد مغريات إبليس الهادفة لإسقاطه وتفشيل مهمته الخلاصية، والواقع أن مواجهته المباشرة مع عدو الخير كانت جُزءًا لا يتجزأ من عملية التحضير لخدمته الجهارية، بل إنها كانت مفتاح

تلك الخدمة؛ لأنها كانت تمثل الحاجز الرئيسي الذي كان يجب عبوره قبل البدء في تلك الخدمة. عندما نقرأ ما دوَّنه الوحي الإلهي بهذا الخصوص نرى أن محاولات إغراء إبليس ليسوع في البرية كانت مبنية على نفس عناصر الإغراء التي تعرَّض لها أبوانا آدم وحواء (قارن تكوين3: 1- 7 مع لوقا4: 1 – 13). تلك العناصر تركزت على شهوة الجسد (الأكل) وشهوة العيون (المنظر الخارجي المغري للأشياء) وشهوة العظمة الاجتماعية (أي تحسين وضع الفرد ومركزه الاجتماعي). وبينما الرغبة في أكل ثمرة الشجرة المحرَّمة والتمتع بمظهرها الجميل والسعي للوصول إلى مركز الإله الخالق (الذي وعدت الحية حواء به)، كانت قد أضعفت صمود حواء وآدم وأسقطتهما في العصيان، فإن المسيح استطاع – رغم شدة جُوعه بعد أربعين يوما من الصوم والضعف الجسدي – أن يُردَّ إبليس ويقهره بعد كل هجوم. آدم وحواء لم يثبتا في كلمة ومواعيد الله وصدَّقا تشكيك الشيطان في صدق أقوال الله، أما يسوع فكان متسلحا بكلمة الحق، الموحَى بها من الله بالذات، التي بواسطتها صدَّ يسوع كل تيارات الهجوم الشيطانية. عندما عاود إبليس الكَرَّة الهجومية محاولا إغراء يسوع وإلهائه عن تكميل مهمته الخلاصية، كان يسوع واعيا لذلك ووقف له بالمرصاد، وقد أخبر يسوع تلاميذه بذلك قائلا: "... رئيس هذا العالم (أي الشيطان) يأتي وليس له فيَّ شيء" (يوحنا14: 30).

ولعل أبرز وأعظم ما ورد في الوحي الإلهي من أدلة على عصمة يسوع عن الخطأ هو ما قاله يسوع نفسه في مواجهته للقيادات اليهودية الدينية التي بنت حياتها على تقوى خارجية زائفة مفعمة بالرياء؛ فبعد أن قال لهم بأنهم ينتسبون إلى إبليس الكذاب والقتَّال وبأنهم ينفِّذون شهواته الشريرة بالذات، نراه يتحدَّاهم مشيرًا لعصمته وإلى تلك الهوَّة الأخلاقية والروحية الساحقة التي تفصله عنهم بالقول: "من منكم (يستطيع أن) يُبكِّتني على خطية" (يوحنا8: 46). والمسيح هنا لم يكن يقصد التمييز ما بين كماله وعصمته وبين شر وفساد ورياء هؤلاء

القادة فحسب، بل إنه طرح وبدون تردد حقيقة تميزه عن كافة الجنس البشري بذلك الكمال وتلك العصمة.

صحيح أن يسوع في تجسده خضع لكافة مغريات وتجارب السقوط في العصيان التي يتعرض لها البشر، لكنه هو وحده لم يسقط، وهو وحده لم يكن من الممكن أن يفشل. لقد كان من المستحيل له أن يرتكب خطية، لأنه وهو في طبيعة بشرية محدودة كان لا يزال يتمتع بطبيعة إلهية، والله لا يمكن أن يرتكب خطأ. هذا أمر جوهري للغاية بالنسبة لتأهله لأن يأخذ على عاتقه تلك المهمة الخلاصية الهامة التي حملها. من هنا كان لاتساع بل ولعدم محدودية عصمته وكماله, الحق في تحمل نتيجة خطية عدد لا يحصى من بني البشر. مِن هنا أيضا متَّل انتصاره على الموت، الانتصار على الخطية التي تقود البشر إلى الموت، وبالتالي تأمين الحياة الأبدية الأكيدة لهم، وليس مجرد الوفاء بمتطلبات العدالة الإلهية بالنيابة عنهم (راجع كورنثوس الأولى15: 51 – 58).